الوحدة الخامسة:..... أ/العمزاوي نبيلة

السياق الحضاري للفلسفة الهلنستية وخصائصها.

لقد اشتهرت الكثير من المذاهب والآراء الفلسفية في إطار ما يعرف بالعصر الهلنستي، حيث تميز هذا الأخير بنزعة تلفيقية واضحة من ناحية واهتماما بالغا بالعلوم الواقعية والعودة إلى إحياء المذاهب القديمة ولا سيما ما كان منها مرتبطا بمبادئ السلوك الأخلاقي وكذلك بمزج الآراء والمذاهب الشرقية – مع ما كان لها من طابع صوفي – بالفكر اليوناني . ولهذا فإننا لا نلمح في هذه المرحلة الطابع اليوناني الخالص للثقافة. ومن ثم فإن جمهرة المؤرخين يميزون بين الثقافة اليونانية الخالصة وهي التي ذاعت وانتشرت في دوري النشأة والنضوح وأسهم فيها أهلها من اليونانيين أنفسهم. وتلك الثقافة التي انتشرت في الدور الثالث في حوض البحر الأبيض المتوسط وشاركت فيها شعوب هذه المنطقة، وعلى هذا فقد اصطلح المؤرخون على تسميتها بالثقافة الهلنستية[1]. أي تلك الثقافة التي انحدرت أصلا من اليونان وسكانها اصطبغت بلون جديد جاء نتيجة للحركة التلفيقة التي تزعمها أفراد من شعوب هذه المنطقة من يونانيين وغير يونانيين.

كان اليونانيون على صلة وثيقة بالشعوب المجاورة لهم، فقد تعرفوا على حضارات شعوب شرقي البحر الأبيض المتوسط ولاسيما مصر إذ تعددت زيارات العلماء والفلاسفة اليونانيين لمصر الفرعونية في وقت مبكر، وحفلت هذه الفترة التاريخية بصور عديدة للصراع الدموي بين الفرس واليونان و على الرغم من هذه الصلات العديدة بين اليونان و بين شعوب هذه المنطقة التاريخية إلا أن العلم اليوناني ظل – إلى

---

[1]– كلمة "هيلينية Hellenism "جاءت من كلمة "هيلاHella "، وهو الاسم العُرفي الذي أطلقه اليونانيون القدماء على أنفسهم، فعُرفوا بِاسم "الهيلينيين"، كما عُرفت بلادهم بِاسم بلاد هيلاس Hellas، وكلمة "هيلينية" ترجع إلى ما قبل القرن الرابع الميلادي، وهي تعبر عن الثقافة والحضارة اليونانية القديمة البحتة، فعندما غزا الإسكندر الأكبر بلاد الشرق وحمل معه هذه الثقافة والحضارة الهيلينية امتزجت هذه الحضارة بحضارات الشرق الروحية، وكان نتيجة هذا التزاوج بين الحضارتين الأغريقية والشرقية ولادة الحضارة "الهيلنسيّة"، ولذلك قال البعض بأن الحضارة الأغريقية مرت بمرحلتين، الأولى: المرحلة الهيلينية (هلينيك (Hellenicوهي الحضارة اليونانية الكلاسيكية وشملت بلاد اليونان، والثانية :المرحلة الهيلنستية (هلينستك (Hellenisticوشملت البقاع التي تألّفت منها الإمبراطورية اليونانية.

حد ما – في هذه المرحلة وقفاً على اليونانيين أنفسهم إلى أن جاءت انتصارات الإسكندر المقدوني فأحدثت ثورة عميقة في حياة اليونانيين وبالتالي في تراثهم العلمي والثقافي، ذلك أن شعوب البلاد التي غزاها الاسكندر أخذت تغترف من مناهل الثقافة اليونانية وتشارك مشاركة فعالة في جميع جوانب الحضارة الإغريقية . وبرز من بين شعوب البلاد المفتوحة أعداد من التلاميذ بل والمعلمين تزعموا الحركة الثقافية في مراكزها الجديدة التي انتشرت في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في الاسكندرية وبرغاما ورودس، وذلك بعد أن فقدت اليونان نفسها استقلالها السياسي، وأصبح الأجانب هم الذين يصرفون شئونها السياسية، الأمر الذي أودى برخاء البلاد وبمعتقداتها القديمة، وأدى إلى انتكاس القيم الاخلاقية الأصيلة تحت ضغط الاتجاه السائد إلى طلب اللذة والاستمتاع بالحياة والحصول على المغانم. ومن الطبيعي إذن أن يعزف الناس عن النظر العميق في ميادين العلم والفلسفة في جو يسوده صراع عنيف حول مطالب الحياة المادية العاجلة، ولهذا فقد احتلت هذه المطالب العملية مكان الصدارة في هذا المجتمع المتعدد الاجناس

لكن هذا الصراع حول مطالب الحياة اليومية كان لابد له من ضحايا .اعتصرتهم ضراوة المواجهة المنافية المبادئ وللمثل الأخلاقية، فكان إذن على الفلسفة أن تنهض لتقدم العلاج والراحة النفسية لهؤلاء حيث يجدون لديها الملجأ الأمين والطريق الممهد للتطهر وذلك بقطع كل صلاتهم بالظروف الخارجية ثم . بالعكوف على حياتهم الباطنية –فالتأمل إذن كان الأسلوب المستخدم في تطهير النفس وممارستها للحياة الروحية الكاملة. ولقد ساد هذا الاتجاه في هذه الفترة وتميزت الفلسفة الهلنستية حينذاك باتجاه ملحوظ إلى البحث في الاخلاقيات وتأثرت في هذا بنزعة صوفية واضحة وبآراء الشرق ومذاهبه الدينية .أما الميتافيزيقا فقد استمد هذا العصر أصولها من فلسفة كل من ديمقريطس وهرقليطس وسنرى كيف قامت الأبيقورية على أساس من فلسفة ديمقريطس وقامت الرواقية كتجديد لفلسفة هرقليطس، ثم كيف طفى مذهب الشك على أفكار الأكاديمية (مدرسة أفلاطون (وأخيراً كيف تبنت الأفلاطونية المحدثة الأصول الفلسفية اليونانية وجمعتها في حركة تلفيقية بارعة مع ميل إلى أفلاطون.و بذالك تكون قد عملت على معارضة تيار الشرك الذي كاد يقضى على تعاليم الأكاديمية في دورها الأخير

يلاحظ من ناحية أخرى أن العلوم بدأت تنفصل بالتدرج عن الفلسفة بعد أن ظل العلم مرتبطاً بالفلسفة إلى عصر أرسطو، وظهرت المراكز العلمية في مدن شرقي البحر الأبيض المتوسط . ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد أن الفيلسوف **بوزيدونيوس** كان آخر فيلسوف يربط بين العلم والفلسفة في العصر الهلنستي، وكذلك كان **أراتوستينس** أمين مكتبة الاسكندرية والجغرافي المشهور أول من سمى نفسه بالفيلولوجي أي عالم اللغة وذلك لكي يتميز عن الفلاسفة، وفى الوقت الذي أخذت العلوم تنفصل فيه عن الفلسفة ظلت أثينا تحمل لواء الزعامة الفلسفية إلى نهاية العصر القديم .ومن ناحية أخرى نلاحظ أنه بينما كان العلم ماضياً في طريق الانفصال عن الفلسفة في هذا الدور –كان الدين يعمل على الاقتراب منها والارتباط به ولم تعد الفلسفة كما كانت عند اليونان مطلباً كمالياً يسهم فيه القلة من كبار المثقفين بل خلفت وراءها الأبراج العاجية لكي تنزل إلى غمار الشعب فيتحدث معلموها إلى الحشود المجتمعة في المدن الكبرى باذلين لهم النصح والتوجيه وآخذين بيدهم في طريق الممارسة الروحية العمل.

بل لقد تغلغلت تعاليم المدارس الفلسفية أيضا إلى القصور وساكنيها وأصبح الفلاسفة مستشارين روحيين للملوك والأمراء وكبار رجال الحاشية وكانت الرواقية والأبيقورية هما المذهبان الفلسفيان السائدان في هذه الفترة وقد أعاد الرواقيون والأبيقوريون أسلوب التفسير الطبيعي الأحادي عند الأيونيين، أما الثنائية الأفلاطونية – الفيثاغورية فقد انحدرت إلى نوع من الشك ولم يكتب لها الظهور إلا في أخريات العصر القديم وفي مدرسة الاسكندرية بالذات حيث ازدهر المذهب الأفلاطوني المحدث – كما ذكرنا وعلى هذا فيمكن تقسيم الدور الثالث من أدوار الفلسفة اليونانية إلى مرحلتين:

الأولى: وتنتشر في هذه المرحلة الأبيقورية والرواقية وما ارتبط بها من آراء المدارس السابقة على سقراط، هذا إلى جوار الأفلاطونية والمشائية.

الثانية: وفي هذه المرحلة نلاحظ سيطرة الفكر اليوناني على الثقافة الرومانية وظهور الفلسفة اليهودية والفيثاغورية المحدثة، ثم ظهور الأفلاطونية المحدثة فيما بعد وسيطرة التصوف على مدرسة الاسكندرية الفلسفية .